الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان
في المغرب والأندلس (ق٦ ـ ٨ هـ/ ١٢ ـ ١٤م)

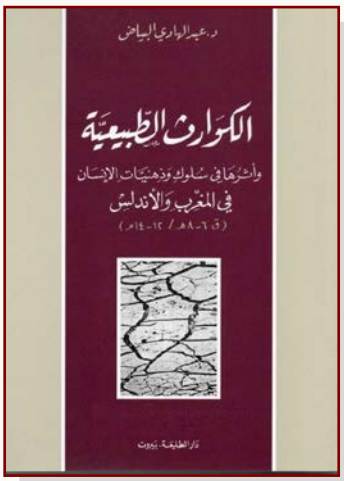

هشام البقالي
ماجستير في تاريخ الأندلس
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
طنجة – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

الدكتور عبد الهادي البياض
الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان
في المغرب والأندلس (ق ٦-٨هـ / ١٢-١٤م)

دار الطبيعة للطباعة والنشر
بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨
٣١٩ صفحة

كلمات مفتاحية:
المجاعات، الكوارث المناخية، العصر الوسيط، الكوارث الطبيعية، المغرب والأندلس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051264

مقدمة

من المتعارف عليه بين عموم الباحثين والدارسين في شتى العلوم "أن تقدم الثقافة العالمة وتطورها شديد الارتباط بالتطارح والتناظر، والجدل والنقاش الجاد، وأن النقد البناء هو ركيزة أساسية لكل تفكير علمي يطمح للتقدم والتجاوز"[١]. لكن المتتبع للمشهد الثقافي بالمغرب ليسترعيه خفوت روح السجال والنقاش بين عامة المثقفين، بل إن الساحة الثقافية تشهد انتكاسة للحس النقدي السجالي حسب البعض[٢] بعد أن ظل سائدًا خلال أواخر القرن الماضي. فالسمة الطاغية بين مثقفينا في الوقت الحالي، هي التساكن والتهادن بل يمكن إضافة اللامبالاة المقصودة تجاه إنتاج الغير. والحقيقة فإننا نؤيد ما ذهب إليه الدكتور محمد الشريف حينما اعتبر "أن ما نعثر عليه من أدبيات نقدية تكاد لا تتخطى نطاق المجاملات والتزلف العلمي، أو إنها أقرب إلى تسطيحات الثقافة الصحفية منها إلى النقد والسجال العلمي الموضوعي.[٣]

بادئ ذي بدء تجدر الإشارة إلى أن موضوع الكتاب الذي نسعد اليوم بتقديم قراءة نقدية فيه، يتأطر زمنيًا في المرحلة الثالثة من مراحل تقدم البحث التاريخي في العصر الوسيط أي مرحلة ما بين سبعينيات القرن الماضي إلى وقتنا الراهن، وهي مرحلة تميزت بالانفتاح على علوم مساعدة للتاريخ كعلم الآثار والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم. بل والاستفادة من مناهج عدة علوم، كالمنهج الإشكالي، والمنهج المقارن ناهيك عن توظيف مفاهيم التحليل النفسي والسلوكي والمقاربة الأنثروبولوجية. ولعل استعمال كل هذه العلوم في حقل التاريخ لا شك وأنها ستجعل المشتغل بهذا العلم أن يقتحم مواضيع ظلت لفترة طويلة خارج اهتمام الباحثين والمؤرخين، ولعل موضوع الكتاب يأتي في طليعة هذه الموضوعات. فمن المتعارف عليه بين عموم الباحثين في علم التاريخ أن البحث في تاريخ المناخ وما يترتب عن تقلباته من كوارث طبيعية وأوبئة لا يزال يخطوا خطواته الأولى بالمغرب، في الوقت الذي قطع أشوطاً بعيدة في أوروبا حيث أصبحت نتائجه تقدم خدمات ثمينة للمؤرخين والباحثين. وللوقوف على قلة الاهتمام بقضايا المناخ والكوارث الطبيعية والأوبئة عبر مراحل تاريخ المغرب، تكفي مراجعة دليل الرسائل والأطاريح الجامعية.

وإذا كان التهيب من معالجة قضايا المناخ حتى في المراحل المتأخرة من مراحل المغرب يُعَدّ قاسمًا مشتركًا بين الباحثين، فإن البحث في هذه الإشكالية خلال الحقب الماضية يُعَدّ بحق مغامرة يصعب التكهن بنتائجها،

فالنصوص القليلة المتناثرة بين مظان مختلفة لا تسمح بتكوين تصور عام عن التطورات المناخية التي شهدها المغرب الوسيط، فبالأحرى الإجابة القاطعة على الأسئلة المطروحة. إن التمعن في علاقة المناخ بالتاريخ يدفع إلى القول بوجود قاسم مشترك بينهما، فالتغيرات المتتالية التي شهدها المناخ، كتتابع الفترات الممطرة ومثيلاتها الجافة، تُعَدّ شبيهة إلى حد بعيد بالتغيرات التي تصيب الحضارات[٤]، ولعل نظرية ابن خلدون تقدم النموذج الأمثل لمعاينة العوارض الدورية التي تصيب هذه الحضارات. وعلى العموم فإن المناخ والتاريخ يخضعان لتقلبات مستمرة[٥]. فكما لا يمكن التحكم في العوامل الطبيعية، يصعب إلى حد "الاستحالة" أحيانًا التنبؤ بالتحولات الاجتماعية.

وهكذا فإن وضع خطاطة أولية للتطورات المناخية للمغرب والأندلس، خلال مراحل تاريخهما السابقة كفيل برتق العديد من الثغرات التي تعاني منها المصادر المكتوبة، وهي في الآن ذاته كفيل بالتقليل من المساحات البيضاء التي تعرقل البحث في ظواهر اقتصادية واجتماعية وذهنية غاية في الأهمية. والظاهر أن السؤال المركزي الذي حمل المناخ إلى قلب انشغالات المؤرخين هو: هل هناك تطابق تام بين المناخ والمجتمع في حركتهما المطردة؟ إن الإجابات المتباينة للمؤرخين هي ما يضفي نوعًا من المشروعية على إثارة هذه الإشكالية. فهل كان للمناخ تأثير واضح المعالم على الإنسان والدولة خلال العصر الوسيط؟

ينبغي الاعتراف، أولاً؛ أن محاولة الإجابة على هذا السؤال تصطدم بالعديد من الإكراهات والصعوبات لعل أولها، انطلاق الباحث من شبه فراغ تنظيري في هذا المجال. فباستثناء بحث الدكتور محمد الستيتو الموسوم بـ"**الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن السادس عشر**" وبحث الدكتور محمد الأمين البزاز المعنون بـ" **مجاعات وأوبئة المغرب في القرنين ١٨ و ١٩**"[٦] ودراسة الباحثة ثريا المرابط زروال حول "**تاريخ الزلازل بالمغرب من ٨٤٦ م إلى ١٩٦٠ م**"[٧]، لا نصادف أبحاثا ذات بال تهم الإشكالية موضوع الدراسة[٨]، اللهم إذا استثنينا دراسة المرحوم الحسين بولقطيب الموسومة بـ"**جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين**"[٩]. وإذا علما أن البحثين الأولين يهمان الفترة الحديثة من تاريخ المغرب، وأن الثالث "بانورامي" يهم إشكالية بعينها، أدركنا ولا شك غياب بحث مخصص لدارسة أثر التقلبات المناخية على مجتمعات ودول الغرب الإسلامي الوسيط.[١٠]

من هنا تأتي أهمية هذه الالتفاتة العلمية التي قدمها الباحث عبد الهادي البياض ليسد ثغرة كبيرة في الدراسات التاريخية المغربية. بعد هذه النظرة الوجيزة على أهمية الموضوع مجال الدراسة، يجدر بنا أن نقدم عرضًا ملخصًا عن مضامين الكتاب، على أن نردفه ببعض الأفكار المندرجة في إطار قراءته.

محتوى الكتاب

قسم الباحث موضوعه إلى مقدمة وبابين تنضوي تحتهما فصول وخاتمة. ففي المقدمة بين أهمية الموضوع وامتداداته السلوكية والذهنية، إلى جانب نبذة عن ملامح المنهج المعتمد في مقاربته. أما الباب الأول من الدراسة والمعنون بـ"**أثر الكوارث الطبيعية في السلوك والذهنيات**" (ص١٧. ١٥٦)، فقد تطرق فيه الباحث إلى دراسة أثر الكوارث الطبيعة في سلوك وذهنيات الإنسان بالمغرب والأندلس. وقد جرى تفصيل ذلك في فصوله الثلاثة على الشكل التالي:

الفصل الأول عنونه بـ"**مسح عام للكوارث الطبيعية في المغرب والأندلس**" (ص١٧. ٧٨) حيث قام الباحث بمسح عام لأصناف الكوارث الطبيعية التي عصفت بالمغرب والأندلس في الحقبة مجال الدراسة، ويتضح أنها قد تنوعت ما بين القحوط والمجاعات، والعواصف والسيول، والجراد ناهيك عن الحرائق فضلاً عن الزلازل والأوبئة، وقد قام الباحث بتذييل كل منها بفحص وتعليق. انظر الصفحات (٤١. ٤٢. ٤٣. ٤٤. ٤٥. ٤٦- ٦٠. ٦١. ٦٢. ٦٣- ٦٩). وقد اعتمد الباحث في هذا التعليق والفحص على المنهج الكمي الإحصائي، ناهيك عن مؤشر الحدود الفاصلة بين مستوى تردد أصناف الكوارث الطبيعية على مدار حقبة الدراسة (ص٤١. ٤٢. ٦١)، ليخرج بخلاصة مفادها أنه لم يخل قرن من القرون الثلاثة سلم فيه المغرب والأندلس من ضغط الكوارث والجوائح، مع إقراره باستثناء القرنين ٦ و٧ للهجرة بنسب عالية في ترددها في المجال المدروس.

أما الفصل الثاني الموسوم بـ" **الكوارث الطبيعية وسلوك الإنسان العدواني والاستسلامي في المغرب والأندلس**" (ص ٧٨. ١٢٩) فحاول البياض إبراز أثر الكوارث الطبيعية في تشكيل سلوك إنسان العدوتين، فاتضح من خلال التحليل سيادة سلوكات عدوانية من تجلياتها الغصب والسلب والتعدي (ص٧٨. ٨٧)، ومن مظاهرها المضاربة والاحتكار وغلاء الأسعار (ص٩٩. ١١٢). وهي سلوكات حاول الباحث الكشف عن مدى مقاومة الدول المركزية لها في مراحل قوتها لدعم شرعيتها (ص ١١٢ . ١١٦). كما حاولت الدراسة إبراز لحظات فتور هذه المقاومة في طور هرمها، وتورط أجهزة السلطة في الأطراف البعيدة في أعمال السطو والنهب بشكل مباشر أحيانًا، وبتنسيق مع العصابات المتنفذة في حال استفحال الكوارث أحيانًا أخرى. الشيء الذي فاقم الأزمة وفسح المجال لذوي النفوذ الروحي والديني، بالتدخل للتخفيف من حدة الاحتقان الاجتماعي لإعانة المنكوبين وإغاثتهم. كما كشفت الدراسة سلوكات استسلامية تجلت بالأساس في تعدد حالات الفرار والهجرة والتنقل الاضطراري خوفا من شبح المجاعة والوباء (ص ١١٦ . ١٢٩).

"**أثر الكوارث الطبيعية في ذهنيات إنسان المغرب والأندلس**" عنوان الفصل الثالث (ص١٣٠. ١٥٦) حيث قام الباحث بتتبع أثر الكوارث الطبيعية في صياغة ذهنيات

خرافية وسلوكية سحرية، ارتبط بها إنسان المغرب والأندلس في الحقبة المعنية بالدارسة، وقد تجلى ذلك في عجزه عن إدراك العلاقات السببية المؤثرة في حدوث الاضطرابات المناخية القصوى. ساعد على ذلك تواضع مستوى الوعي المرتبط بانحسار مجالات التعليم وفقر مقرراته (ص١٣٥)، فوجدت المتغيرات المناخية مرتعا لسيادة الفكر الخرافي والاعتقاد في المشعوذين والكهان والسحرة والمنجمين (ص١٤٢.١٥٦).

والحقيقة فإن الاستقراء التاريخي يوضح أن هذه السلوكات لم تكن سوى واجهة تعبيرية عن واقع مثخن بالأزمات والفواجع الطبيعية الصعبة التي كابدها إنسان الحقبة المدروسة. كما يتبين أن ضغطها المتزايد ولد ذهنيات التعليل الخرافي، التي دعمتها الأجهزة الحاكمة أحيانًا، من خلال اتخاذ أولي الأمر المنجمين وسيلة لمعرفة أسرار الغيب، وكشف الطالع وقراءة القرانات، باعتبارها وسائل رصد خرافية للاضطرابات المناخية (ص١٥٣.١٥٦). وهكذا كشفت الدراسة سيادة طقوس سحرية، من زجر وقراءة الكتف وخط رمل ورق، وكذا اتخاذ طلاسم لحراسة الإنسان والمكان من الآفات والكوارث (ص ١٤٢.١٥٦).

في حين حاول عبد الهادي البياض في الباب الثاني الموسوم بـ" **الكوارث الطبيعية وإبداع أساليب المواجهة**" (ص١٥٩ . ٣١٠)، حاول رصد أهم ردود فعل إنسان مجال الدراسة تجاه مضاعفات الكوارث الطبيعية، مركزا على أساليب المواجهة التي أبدعها للتخفيف من ضغطها على وجوده وموارد عيشه. على هذا الأساس قام الباحث بتفصيل ذلك في أربعة فصول عنون الأول منها بـ" **الإنسان في المغرب والأندلس بين مواجهة الكوارث الطبيعية والعودة إلى الطبيعة (ق ٦ . ٨ هـ/ ١٢ . ١٤م)** حيث حاول إبراز التدابير الميدانية لمواجهة مضاعفات الكوارث الطبيعية، منها تطوير أساليب السقي وعدم الاعتماد الكلي على مياه التساقطات (ص١٥٩-١٦٧) وذلك من خلال استغلال المياه الجوفية، بدءا بعمليات التنقيب عن المياه واختبار جودتها، مرورا بمد قنوات السقي وحفر الآبار والصهاريج، وصولا إلى ترشيد استغلال المياه بوسائل تقنية وتنظيمها وفق قوانين وأعراف محلية (ص١٦٢- ١٦٧). كما حاول الباحث الكشف عن دور السدود والجسور في الحد من خطورة السيول والفيضانات الجارفة (ص١٧٢-١٧٥)، هذا فضلاً عن وسائل مكافحة الجراد (ص١٧٧ -١٧٩). كما حاولت الدراسة إبراز دور الزلازل وهزاتها الارتدادية رغم إقراره بقلتها في ظهور ذهنيات طالما ربطت بينها. أي الزلازل وبين أنواع العقاب السماوي للإنسان، كما أبرزت الدراسة الحس العلمي الذي عبر عليه بعض علماء الفترة محل الدرس وذلك من حيث فهم الظاهرة، واستيعاب علاقاتها السببية (ص١٧٩ -١٨١).

وتعرضت الدراسة إلى إبراز دور الكوارث الطبيعية . وخاصة منها المجاعات . في ظهور سلوكات غذائية بدائية - كما عبر عنها الباحث-نسخت عادات إنسان المغرب والأندلس المتحضرة، وذلك من خلال سياحته في البراري لجمع موارد الغابات وثمارها، وقنص حيواناتها وزواحفها، بل ومنافسة وحيشها في التهام الأعشاب والحشرات. وهكذا يتضح أن الجوع إذا تمكن من الإنسان فإن نظرته لما حوله من القيم تتغير بتغير سلوكه (ص١٨١ -١٩٤) وحينها لا يتورع عن القيام بأي عمل شاذ كأكل البهائم والجيف كما عبر عن ذلك ابن الخطيب.(١١)

وفي الفصل الثاني الموسوم بـ" **الكوارث الطبيعية وسلوك الادخار في المغرب والأندلس (ق ٦ . ٨ هـ/ ١٢ . ١٤)** حاولت الدراسة، رصد السلوكات التحصينية التي اهتدى إليها إنسان المغرب والأندلس تحت ضغط هواجس الخوف من المصير المجهول. وتجلى ذلك في تجفيف المواد القابلة للادخار، وإعداد مطامر وأهراء لصيانة احتياطه الغذائي وتفادي الفترات القاسية التي تفرضها عليه الكوارث الطبيعية. كما عالجت الدراسة المخازن والمستودعات الرسمية وذلك من حيث طرائق بنائها وتهيئتها، وعوامل تدبيرها وإدارتها ومدى دورها في إغاثة المتضورين جوعًا (ص٢٠٢. ٢١٢). كما تم رصد سلوكات الخزن الشعبي، حيث يتضح أن سلوك الادخار أضحى عادة راسخة في المغرب والأندلس في العصر الوسيط عمومًا وفي الفترة مدار الدراسة خصوصًا (ص٢١٢.٢٢٣).

تصدى البحث لدور الكوارث الطبيعية في ظهور التوترات الاجتماعية وذلك في الفصل الثالث والمعنون بـ "**مواجهة الكوارث الطبيعية وظهور التوترات الاجتماعية**" (ص٢٢٤ -٢٥٢)، حيث احتلت القحوط والمجاعات والفيضانات محور الصراع في المغرب والأندلس.

وهكذا أمكن الوقوف على دور التحولات المناخية وتشكلات سطح تضاريس العدوتين، في نشوء التوترات بين سكان المناطق المرتفعة والمستوطنين أسفل منهم، وذلك على ضوء النصوص التي استطاع الباحث إدراجها في متن الدراسة. والحصيلة أن معظم المنازعات كانت تعزى إلى عدم تكافؤ الفرص في استغلال المياه سواء في فترات ندرته أوفي فيضانه (ص٢٢٤.٢٣٨). كما حاولت الدراسة إبراز دور الكوارث الطبيعية، في نشوب الخصومات بين المزارعين والرحويين، خاصة في أوقات القحط والجفاف وغالبًا ما كان أصحاب المزارعين والجنات يستفيدون من المياه على حساب أصحاب الرحى وذلك استنادًا على أجوبة الفقهاء في هذه النوازل، (ص٢٣٨.٢٤٨). وتجدر الإشارة إلى؛ أن كتب الفقه والنوازل والحسبة تزخر بمادة تاريخية مهمة تهم معظم الحالات التي تكون فيها الكوارث والجوائح سببا في إثارة الخصومات بين الشركاء والمتعاقدين سواء تعلق الأمر بمنازعات الإيجار، أو أنواع الشراكة في البوادي، أو المعاملات في المرافق الاقتصادية والدينية، فضلا عن النزاع بشأن صيانة وترميم ما أتلفته الكوارث المختلفة بالمغرب والأندلس خلال الحقبة التي اهتمت بها الدراسة.

وفي الفصل الرابع المعنون بـ" **مواجهة الكوارث الطبيعية وتأسيس المجتمع المتضامن في المغرب والأندلس (ق ٦ . ٨ هـ/ ١٢ . ١٤ م)**، أبرزت الدراسة أن سلوكات التوتر والنزاع لم تكن الإفراز السلبي للكوارث الطبيعية فقط، فلهذه الآفة

وجه إيجابي تمثل من خلال الاستقراء الشامل لثقافة التكافل الاجتماعي لسكان العدوتين. حيث يظهر أن الرباطات الصوفية شكلت ملاذا لإيواء الجوعى، بينما فتحت الدول المركزية مخازنها في وجه جحافل الجوعى، كما وفرت المواد الضرورية للأسواق ناهيك عن تحرير الأسعار. هذا ولا ننسى الدور الاجتماعي لمتصوفة المرحلة المدروسة إبان هذه الكوارث. كما حاولت الدراسة إبراز عناية الدول المركزية في مراحل قوتها لبناء وتجهيز المرافق الإستشفائية والمستشفيات العمومية، خاصة إذا علمنا أن خدماتها كانت مجانية.

وفي الخاتمة (ص ٣١١ . ٣١٥) قام الباحث بتقديم تلخيص عام لأهم فصول الدراسة. هذه إذا أهم مضامين الدراسة التي حاول من خلالها الباحث إعطاء صورة واضحة عن أثر الكوارث الطبيعية في سلوك وذهنيات إنسان العدوتين فيما بين القرنيين السادس والثامن الهجريين، الثاني عشر والرابع عشر للميلاد.

الملاحظات والتساؤلات

ونصل الآن إلى إبراز بعض الملاحظات والتساؤلات التي عنت لنا من خلال قراءتنا للكتاب.

في البداية تجدر الإشارة إلى؛ أن الدراسة التي بين أيدينا تضم بين دفتيها حوالي ٣٢٠ صفحة وقد بذل الباحث من أجل دراسة هذا الموضوع الذي لايزال مغيبا في الإستوغرافية المغربية الحديثة، بذل مجهودًا جبارًا، وهو ينتقل ويجول بين أصناف مصدرية مختلفة وذلك قصد لم النصوص المتعلقة بموضوع البحث. فالموضوع يُعَدّ-وبكل المقاييس- موضوعًا إشكاليًا مفعمًا بالمطبات التي تمتزج فيها ندرة المتون النصية بالتعقيدات المنهجية التي تفرضها طبيعية موضوع بهذه الشاكلة. لكن رغم ذلك لم يخصص الباحث للمقدمة سوى صفحتين وبضعة أسطر، ويخيل إلينا أن للمقدمة مكانها الاستراتيجي في كل الأعمال الأكاديمية، نظرًا لأنها يجب أن تتضمن رؤى ومواقف منهاجية معينة، وهذا ما لا نلحظه في هذه المقدمة.

يحيل الباحث على مصادر مرقونة وهي في الحقيقة مطبوعة، فمثلا يحيل على كتاب أحمد بابا التنبكتي (ت ٩٦٣ هـ/ ١٠٣٦م)، "**كفاية المحتاج المعرفة من ليس في الديباج**"، تحقيق، محمد مطيع، د.د.ع، في التاريخ، خزانة كلية الآداب بالرباط، والكتاب متداول وقد طبعته وزارة الأوقاف المغربية، مطبعة فضالة، سنة ٢٠٠٠. وكذلك يحيل الباحث على مصادر مخطوطة وهي في حقيقة الأمر قد حققت انظر مثلاً "**جنة الرضي في التسليم بما قدر الله وقضى**" مخطوط الخزانة الحسينية رقم ٢٦٤٨، والكتاب محقق من طرف الدكتور صلاح جرار، سنة ١٩٨٩[١٢]، وهناك نسخة ثانية من هذا العمل أنجزته الدكتورة ميلودة الحسناوي الشرويطي لكنه لازال مرقونًا. كما يشير إلى فتاوى البرزلي في نسختها المخطوطة وهي قد طبعت سنة ٢٠٠٢، وما دمنا في قضية المصادر، فالباحث لم يورد قائمة المصادر والمراجع المعتمد عليها في دراسته، وإنما اكتفى بوضع لائحة للمصادر المخطوطة متبعا في ذلك منهجية أستاذه الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، مما يصعب معه حصر قائمة البيليوغرافيا التي اعتمدها الباحث في دراسته.

في الفصل الأول من الدراسة والذي خصصه الباحث لمسح عام للكوارث والمجاعات التي ضربت المغرب والأندلس، إبان الحقبة مجال الدراسة، نرى الباحث يتحاشى ذكر مجموعة من القحوط والمجاعات وذلك في الجدول الأول من الصفحة ٣٦، معللاً ذلك "لتفادي التأويل القائم على التخمين المؤدي في الغالب إلى الأحكام والنتائج". (ص٤١).

وإليكم أهم تلك القحوط والمجاعات:

نوع الكارثة	سنة وقوعها	مجالها	المصدر
مجاعة	٦١٤ هجرية	غير محدد	البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٧
مجاعة	٦١١ هجرية	غير محدد	البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٦٧

جدول مجاعات غير محددة التاريخ لم يذكرها المؤلف:

المصدر	الصفحات
التشوف	٢٤.٢٤٦.٣٠٧.٣٣٣
المناهج الواضح	ج ٢، ٤٠٤.٣٠٥
مناقب أبي يعزى (مخ)	٢٣
الذيل والتكملة	س ٨ ق ١، ص ١٧٥
الإعلام بمن حل مراكش من الأعلام	ج ٩، ٨٦ والجزء ١، ٢٧
النجم الثاقب (مخ)	٢٢٩
المؤنس في أخبار إفريقية	١٢١
البيان المغرب	ج١، ٢٧١

الجدول نقلاً عن الحسين، بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين** منشورات الزمن، سلسلة قضايا تاريخية، رقم ٤، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص٤٦.

كما يحيل الباحث على مجموعة من المصادر للمرة الأولى لكنه لا يعطي كافة البيانات المتعلقة بالبيليوغرافيا، مما يؤدي بالقارئ إلى إيجاد صعوبة معرفة الطبعة التي اعتمدها الباحث، خاصة عندما يحيل على مصادر حققت أكثر من مرة ومن طرف باحثين مختلفين (انظر مثلاً نفاضة الجراب، والإحاطة...، في عدة صفحات).

في غياب مادة مصدرية كفيلة بإماطة اللثام عن أثر الكوارث الطبيعية في سلوك وذهنيات إنسان المرحلة إبان الدراسة يضطر معه الباحث عبد الهادي البياض إلى إقحام مجموعة من الظواهر الطبيعية وغير الطبيعية في بحثه، فمثلاً يتحدث عن ظاهرتي الكسوف والخسوف (ص٧٤. ٧٥). ناهيك عن إيراده للحرائق واعتبارها كوارث طبيعية مع العلم أن جميع النصوص التي استشهد بها الباحث ليدعم أرائه حول هذه الحرائق هي من صنع إنسان المغرب والأندلس خلال مرحلة الدراسة. ولنا أن نتساءل: هل تعد الحرائق التي يتسبب فيها الإنسان، كوارث طبيعية؟ (انظر صفحات ٦٩. ٧٠. ٧١. ٧٢. ٧٣. ٧٤) وهل ظاهرتي الخسوف والكسوف، كوارث طبيعية؟

إن الباحث كما أسلفنا الذكر يقحم مجموعة من الظواهر الطبيعية في الدراسة، رغم اعترافه مثلاً بأن الزلازل" ليست من صنف الكوارث التي تحدث باستمرار بشكل عام، وفي المغرب والأندلس بشكل خاص نظرًا لبعد مجاليهما الجغرافي نسبيًا عن خط الزلازل" (ص٧٥)؟ بل أكثر من هذا فإننا نجد عبد الهادي البياض يدرج زلازل وقعت في المغرب والأندلس وهي زمنيًا خارج الإطار الذي حدده لبحثه، أي ما بين القرنين السادس والثامن للهجرة، حيث يتحدث عن زلزال ضرب المغرب سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، (ص٧٥) وهذا الزلزال متأخر عن بداية القرن السادس بـ ٢٨ سنة، والأغرب من هذا وذاك أن الباحث يستشهد بزلازل المشرق ومدينة تونس في إفريقية سنتي(٦٠٠ هـ/١٢٠٤م- و٦٥٦هـ/ ١٢٥٣م) على التوالي، معللا ذلك" بحكم التباعد الزمني للهزات الأرضية [لذلك] أدرج تلك القريبة جدًا من الغلاف الزمني المحدد لموضوع الدراسة" (ص٧٥).

إن المتأمل لكتاب" **الكوارث الطبيعية**" ليلحظ أن الباحث عبد الهادي البياض لم يلتزم بمنهجية موحدة في دراسته، ففي سياقه لعرض الكوارث الطبيعية التي ألمت بالمغرب والأندلس خلال الحقبة المدروسة، نجده يتحدث عن كوارث كل قرن على حدة فمثلا يتحدث عن قحوط ومجاعات القرن السادس الهجري، (ص٢٠ .٢٤). ويدرج قحوط ومجاعات القرن الثامن الهجري، (ص٣٣. ٤٦)، في حين نجده يتحدث عن أثر هذه الكوارث وسلوك الإنسان بشكل متداخل، أي أنه يتحدث عن أثرها بصفة عامة سواء كان ذلك في العصر المرابطي أو الموحدي أو المريني.

يتحدث الباحث عن أن المتصوفة كان لهم أثر واضح على الفقراء والمنكوبين في الكوارث والمحن التي عصفت بسكان المغرب والأندلس في الحقبة قيد الدرس، وهذا أمر لا يجادل أحد فيه، لكن الدكتور عبد الهادي البياض يتناقض مع نفسه، ويتحدث عن هذه الشريحة من المجتمعين المغربي والأندلسي بقوله إن البعض منهم كان" يأخذ الطعام وقت رخصه ويتاجر أيام غلائه" وهذا أمر يتناقض وسلوك المتصوفة خاصة متصوفة الحقبة المدروسة[١٣]، وقد جبل هؤلاء على التكافل والتضامن خاصة أيام المجاعات والكوارث والشدائد، والغريب في الأمر أن الباحث لا يعزز كلامه هذا بنصوص فهو لم يستدل على ذلك ولو بنص واحد، اللهم إذا استثنينا اقتباسه هذه الفكرة من كتاب" **النشاط الاقتصادي**" للدكتور عز الدين أحمد موسى.[١٤]

يستشهد الباحث في دراسته بأحداث مؤطرة زمنيا خارج مجال البحث أي القرنيين ٦. ٨ هـ/ ١٢. ١٤م، فمثلاً يستشهد في المحور الذي عنونه بـ" **المجاعات والعودة إلى سلوك التغذية البدائية**" بأن إنسان الأندلس عانى من كثرة الجوع الذي ألم به حتى أقدم على أكل لحم أخيه الإنسان، واستدل على ذلك" بأحدهم عندما هجم على نصراني وقع في الحفير فأخذ باليد ووزع لحمه"، وهذا الحدث مؤطر زمنيًا خارج الفترة مدار الدراسة، وهذا الحدث وقع سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م. (انظر الصفحة ١٩٤).

إن المتفحص لمضامين الكتاب بدقة يجد أن الدكتور عبد الهادي البياض قد أفرد عناوين لبعض المحاور لا علاقة لها بمضمون تلك المحاور، فمثلا نجده يعنون أحد المحاور بالصيغة التالية: "**استعانة المخزن بالأولياء في الحملات التكافلية إبان الكوارث الطبيعية**"، والحقيقة أن هذا المحور يتحدث عن بعض الأدوار الاجتماعية لمتصوفة القرنيين السادس والسابع الهجريين، هذا من جهة ومن جهة ثانية نجد الباحث لا يستشهد بمتصوف واحد من القرن الثامن الهجري، مع العلم أنه يؤكد في غير من بأن هذا القرن هو قرن الكوارث بامتياز، فهل يعني هذا أن هؤلاء المتصوفة لم يكن لهم دور اجتماعي في هذه الحقبة؟

حقيقة أن متصوفة هذا القرن كان لهم دور اجتماعي مهم على غرار متصوفة عصري المرابطين والموحدين، ونكتفي هنا بالإشارة إلى أطروحة الدكتور محمد مفتاح الموسومة بـ"**الخطاب الصوفي مقاربة وظيفية**" والتي أدرج فيها مجموعة من الأدوار الاجتماعية لمتصوفة القرن الثامن الهجري، خاصةً إبان الكوارث التي هي قيد الدرس في هذا الكتاب.

إذا كان الأمر والحالة هذه، فإن عبد الهادي البياض وإن اعترف بهذه الأدوار التي أنيطت برجال التصوف في العصر الوسيط- مع ذلك- فإنه يُسقط بعض المفاهيم المعاصرة على هؤلاء ويحملهم مالا يتحملونه، فنجده يقول:" على الرغم من أهمية الدور التكافلي الذي اضطلع به الأولياء زمن الكوارث المناخية بالمغرب والأندلس، فقد أسهموا دون قصد في إفشال تطور الاحتقان الاجتماعي إلى نواة احتجاج واعية، كان من شأنها إحداث طفرة نوعية في إشاعة لغة الحقوق والواجبات، وترسيخ سلوك محاسبة المسؤولين في إدارة الشأن العام، وخاصةً في الفترات العصيبة التي تتزامن مع الكوارث الطبيعية أو تعقبها"[١٥]. نعتقد أن مثل هذه المفاهيم من قبيل "الاحتقان الاجتماعي" و"نواة احتجاج

واعية" و"لغة الحقوق والواجبات" و"ترسيخ سلوك محاسبة المسؤولين في إدارة الشأن العام"، مصطلحات لم تكن واردة في عقلية متصوف العصر الوسيط، وهي مفاهيم برزت بعد القرن الثامن عشر مع الدولة الوطنية الحديثة، وعصر الأنوار، لذلك فهذا الطرح لا ينسجم مع عقلية متصوف العصر الوسيط، الذي كان همه الوحيد هو مساعدة المحتاجين والمعوزين، ولم يكن يُفكِّر في تأليب المجتمع ضد السلطة، هذا مع العلم أن هذه الدراسة وغيرها تجعل عمل المتصوفة هذا متسم بالظرفية، في حين أن المتأمل للنصوص يرى عكس ذلك.

وبالعودة إلى صيغة المحور الذي أشرنا إليه آنفًا وعلى ضوء ما سبق عرضه أعلاه، يمكننا أن نتساءل، أين تتجلى استعانة المخزن بالأولياء في هذا المحور؟ مع العلم أن الباحث لم يستشهد ولو بنص واحد عن استعانة المخزن بالمتصوفة؟ هذا مع العلم أن جل متصوفة العصر الوسيط كانوا يبدون معارضة تجاه السلطة ورموزها[١٦]. وحسبنا في ذلك أن يقر بهذه الحقيقة واحد من أكبر المتخصصين في تاريخ المغرب والأندلس في العصر الوسيط بقوله إن "علاقة السلطة بالمتصوفة كانت في أغلبها علاقة تنافر وتباعد ومواجهة، وسلكت المؤسسة الحاكمة في مواجهة التيار الصوفي مجموعة من الأساليب تراوحت بين المراقبة والمتابعة وإلصاق تهم الخروج عن السنة، والملاحقة والإبعاد والاعتقال والسجن والاغتيال، وكلها أساليب تفصح عن مدى خطورة المتصوفة كتيار فكري فرض نفسه في المجتمع المغربي الوسيط".[١٧]

في الفصل الثالث من الباب الثاني الموسوم بـ "مواجهة الكوارث الطبيعية وظهور التوترات الاجتماعية في المغرب والأندلس (ق٦-٨هـ/ ١٢-١٤م)، يتكرر كثيرًا مفهوما "الأعالي" و"الأسافل"، لكن الباحث لا يعطي للقارئ العادي أو غير المتخصص شرحًا لهذين المصطلحين.[١٨]

وعلى العموم يُلاحظ؛ أن دول الفترة مجال الدراسة قد قامت بالأدوار المنوطة بها تجاه رعاياها. فقد كانت في كثير من الأحيان، حاضرة إبان الكوارث الكبرى، محاولة التدخل للتخفيف من وقعها على الشرائح السفلى من المجتمع، حيث كانت تفتح مخازنها أمام الفقراء والجياع، الأمر الذي يقلل من حجم الخسائر الديموغرافية. لكننا نلحظ أن أغلب إذ لم نقل جل النصوص التي استشهد بها الدكتور عبد الهادي البياض حول الكوارث الطبيعية تهم الحواضر دون البوادي، إذ مازلنا لا نعلم هل قامت دول الفترة محل الدراسة، تجاه سكان البوادي بنفس الأدوار التي قامت بها تجاه سكان الحواضر. فهل مردُ هذا الأمر إلى صمت المصادر الوسيطية كلما تعلق الأمر بسكان البوادي، فالحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهؤلاء السكان تعاني من غياب شبه تام؟ أم ذلك يعود إلى عقلية المؤرخ الوسيطي الذي يتحمل المسؤولية المركزية في" تغييب" حياة الأغلبية المنتجة والاقتصار على تتبع حياة الخلفاء والسلاطين وكبار القواد العسكريين وشيوخ القبائل والفقهاء المدافعين عن الاختيارات المذهبية للدول الوسيطية؟ سؤال نطرحه ونترك الإجابة عنه للمتخصصين في هذه الفترة، عسى أن يجدوا له جوابًا.

ختم الباحث كتابه بخاتمة لا توازي في نظرنا المجهود الجبار الذي بذله في سبيل إخراج هذا العمل والكشف ما للكوارث الطبيعية من أثر في سلوك وذهنيات إنسان المغرب والأندلس في المرحلة قيد الدراسة، فهو قام في هذه الخاتمة بإيراد ملخص مقتضب لفحوى فصول وأبواب الدراسة ليس إلا. بيد أن خاتمة أي كتاب وخاصةً الأعمال الأكاديمية تكون عبارة عن عصارة البحث أو الدراسة، فهي تحمل استنتاجات العمل وأهم الخلاصات التي خرج بها الباحث في موضوعه بل أكثر من ذلك فهي تحمل تساؤلات مشروعة تفتح أبوابًا أخرى أمام البحث العلمي، وهذا ما لا نجده في هذه الخاتمة.

وتبقى أكبر ملاحظة على الباحث هي، عدم تخلصه من أسلوب أستاذه الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، فالقارئ للأطروحة ليلحظ حضور شخص الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش بقوة في الدراسة.

خاتمة

والحصيلة؛ أن هذه الانتقادات لا تنقص من قيمة العمل أي شيء إذ يكفي أن نعلم أن الباحث ينطلق من شبه فراغ تنظيري فالمحن والكوارث التي عاشها إنسان الفترة المذكورة" تقابل بصمت المصادر التي تعز فيها المادة التي يمكن للباحث أن يكشف من خلالها صورة من صور الدمار الذي استهدف الإنسان وبيئته، مما يشكل عثرة في درب تطور البحث في تاريخ الكوارث المناخية ويفسح مقابل ذلك المجال للتخمين والحدس وقياس النصوص ببعضها، مع ما يكتنف هذه العملية من مزالق منهجية". (ص٦٤). وعسانا أن نكون بقراءة هذا العمل، قد أضفنا إضافات إلى هذه الدراسة التي قام بها الباحث عبد الهادي البياض، وساهمنا معه بالحد الأدنى المطلوب من أجل خدمة تاريخ الكوارث الطبيعية في المغرب والأندلس خلال الحقبة المدروسة. وحسبنا أننا حاولنا وسعينا "وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ" و"وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ".

الهوامش

(١) محمد الشريف: **إصدارات في تاريخ الغرب الإسلامي (قراءات نقدية)**، ج١، الرباط، ٢٠٠٥، ص٣.
(٢) المرجع نفسه، ص٣.
(٣) المرجع نفسه والصفحة.
(٤) الناصري، محمد، **"الكوارث الطبيعية والحتمية التاريخية"**، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد ١٥، ١٩٨٩ . ١٩٩٠، ص٦٨.
(٥) المرجع نفسه، ص٦٩.
(٦) الصادر عن منشورات كلية الآداب الرباط، ١٩٩٢.
(٧) رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة في التاريخ مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، بتاريخ: ١٣ .٦ .١٩٩١م.
(٨) للوقوف على غياب الاهتمام بالمناخ والكوارث الطبيعية عبر تاريخ المغرب، يراجع: **دليل الأطروحات والرسائل الجامعية المسجلة بكليات المغرب** في ١٩٦١ إلى ١٩٩٤ وملحقاه لسنتي ١٩٩٥ إلى ١٩٩٦، منشورات جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة دراسات بيبليوغرافية، رقم٤.
(٩) الصادر عن منشورات الزمن سنة ٢٠٠٢، سلسلة قضايا تاريخية رقم (٤)، ١٣٥ صفحة.
(١٠) توجد مجموعة من الدراسات القطاعية التي اهتمت بموضوع الكوارث الطبيعية نذكر منها: الحسين إسكان، **"المجاعات والأوبئة بين الآفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب"** ضمن أعمال ندوة، **المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب الجديد، سلسلة ندوات ومناظرات، ع، ٤، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء،٢٠٠٢.- عز الدين جسوس، **"الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين"** ضمن ندوة، المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب.- صدقي أحمد الدجاني، **"الكوارث الطبيعية"** ضمن أعمال ندوة، **الكوارث الطبيعية، آفة الجراد**، ربيع الثاني، ١٤٠٩ هـ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الدوريات.- ياسين عثمان، **"الوقاية من آفة الجراد"** ضمن المرجع السابق.- ابن الخوجة، **"الجراد بين الدراسات الحديثة"**، ضمن المرجع السابق.- محمد الأمين البزاز، **"حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط"**، مجلة كلية الآداب الرباط، العدد ٢٨، ١٩٩٣، ص ٩٣ . ١١١، نفسه **"الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى"**، مجلة المناهل، عدد خاص بتجربة الإصلاح في المغرب، العدد، ٦٩، ٧٠، ١٩٩١، ص١٠٩ - ١٢٢. ولنفس الباحث، «**الطاعون الأسود في المغرب**»، مجلة كلية الآداب، العدد، ١٦، ١٩٩١، ص ١٠٩.١٢٢.
Rosenberger et triki; «famines et épédémies ou maroc oux xvie siècle» le partie hesperis tamuda: vol XIV.
(١١) ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، ج٢، ص٣٢٤.
(١٢) جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى لأبي يحى محمد بن عاصم الغرناطي، المتوفى سنة ٨٥٧ هـ، تحقيق، د. صلاح جرار، دار النشر، البشير والتوزيع، طبعة ١٩٨٩، ٣ أجزاء.
(١٣) هذا ما خلصنا له في بحثنا لنيل الإجازة في التاريخ، **الدور الاجتماعي لمتصوفة العصر المرابطي**، (نسخة مرقونة، السنة الجامعية ٢٠٠٨).
(١٤) عز الدين، أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب والإسلامي خلال القرن ٦ هـ**، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هج/ ١٩٨٣، ص٢٩٦.
(١٥) عبد الهادي البياض: **الكوارث الطبيعية**...م. س، ص٢٧٥-٢٧٦، نفسه: **"تجليات المقاربة الوسيطية في منهج التكافل الاجتماعي لمتصوفة مغرب العصر الوسيط"**، ضمن كتاب: **التصوف السني في تاريخ المغرب، نسق نموذجي للوسطية والاعتدال**، تقديم وإشراف: د. ابراهيم القادري بوتشيش، منشورات الزمن، سلسلة شرفات، ٢٧، الدار البيضاء، ٢٠١٠، ص٢٣٣.
(١٦) التميمي، أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفاسي (ت. ٦٠٣ أو٦٠٤ هـ)، **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**، دراسة وتحقيق، محمد الشريف، الرباط، ٢٠٠٢، ج١، ص٢٣٥.
(١٧) بوتشيش، إبراهيم القادري: **"حول محن المتصوفة المغاربة في العصر المرابطي"**، مجلة المناهل، عدد٨٠، ٨١، فبراير ٢٠٠٧، خاص بالزوايا في المغرب، ج١، ص٤٨.
(١٨) مفهوما "الأعالي" و"الأسافل" يقصد بهما المجال الذي تحتله عالية النهر وسافلته، وحول المصطلحين وكيفية تنظيم العلاقة بين العالية والسافلة في الحقبة موضوع الدراسة يراجع: بنميرة، عمر، **النوازل والمجتمع: مساهمة في تاريخ البادية بالمغرب الوسيط (ق٨ . ٩ هـ/ ١٤ . ١٥ م)**، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب الرباط، ١٩٨٨ . ١٩٨٩، (مرقونة)، ص ٣٩٥ . ٣٩٦.